

## الباب الثامن والعشرون

### كيفية الدخول في الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر ساجداً لله أربعين يوماً وليلة حتى أتاه الغفران من ربه.

وقد تقرّر أن الوحدة والعزلة ملك الأمر وتمسك أرباب الصدق؛ فمن استمرت أوقاته علي ذلك فجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه. فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولاً، ثم بالأهل والأولاد ثانياً، فليجعل لنفسه من ذلك نصيباً.

نقل عن سفيان الثوري، فيما روى أحمد بن حرب، عن خالد بن زيد، رضى الله عنه، أنه قال: كان يقال ما أخلص عبدُ الله أربعين صباحاً إلا أنبت الله سبحانه وتعالى الحكمة في قلبه، وزهده الله في الدنيا، ورغبه في الآخرة، وبصره داء الدنيا ودواءها. فليتأهد<sup>(١)</sup> العبد نفسه في كل سنة مرة.

وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكمل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج عن كل ما يملكه، ويغتسل غسلًا كاملاً - بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة - ويصلى ركعتين، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه ببكاءٍ وتضرعٍ واستكانةٍ وتخشعٍ، ويُسوى بين السريرة والعلانية، ولا ينطوى على غلٍ وغشٍ وحقدٍ وحسدٍ وخيانةٍ، ثم يقعد في موضع خلوته، ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، ومن ذهب إلى ترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وأخطأ؛ فإن وجد تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة في خلوته، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفرداً ألبتة، فبترك الجماعة يخشى عليه آفات، وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة.

غير أنه ينبغي أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكراً لا يفتر عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى، ولا يصنعى إلى ما يسمع؛ لأن القوة الحافظة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع.

فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته، ويتقى في خروجه استحلاء<sup>(٢)</sup> نظر الخلق إليه وعلمهم بجلوسه في خلوته. فقد قيل: «لا تطمع في

(١) والتأهد لغة في التعمد، يقال تعهد الضيعة، وتأهدها: أتاها وأصلحها، وحقيقته: جدد العهد بها.

(٢) وفي نسخة: استجلاء.

المنزلة عند الناس وأنت تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس». وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا عتُبر. ويكون في خلوته جاعلاً ووقته شيئاً واحداً موهوباً لله بإدامة فعل الرضا إما تلاوة أو ذكراً، أو صلاة، أو مراقبة.

وأى وقت فتر عن هذه الأقسام ينام.

فإذا أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئاً فشيئاً. وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام فعل فإذا فتر عن ذلك ينام.

وإن أراد أن يبقى في سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة، أو ركعتين، ساعة أو ساعتين فعل.

ويلازم في خلوته إدامة الوضوء ولا ينام إلا عن غلبَةٍ بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات، فيكون هذا شغله ليلاً ونهاره.

وإذا كان ذاكراً لكلمة (لا إله إلا الله) وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان.

وقد قال سهل بن عبد الله: إذا قلت لا إله إلا الله مُدِّ الكلمة وانظر إلى قِدَمِ الحق فآثبته وأبطل ما سواه.

وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة، فليكن دائم التلزم بفعل الرضا.

وأما قوت من في الأربعينية والخلوة، فالأولى أن يقتنع<sup>(١)</sup> بالخبز والملح، ويتناول كلاً ليلة رطلاً واحداً — بالبغدادى — يتناوله بعد العشاء الأخيرة، وإن قَسَمه نصفين، يأكل أول الليل نصفَ رطلٍ وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة، وعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة.

وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل، وأن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام، وإن كان الإدام شيئاً يقدم مقام الخبز ينقص الخبز بقدر ذلك. وإن أراد التقليل، من هذا القدر ينقص كل ليلة دون اللقمة بحيث ينتهى تقلله في العشر الأخير من الأربعين إلى

(١) وفي نسخة: يقتنع .

نصف رطل. وإن قوى قَنَّع النفس بنصف رطل من أوَّل الأربعين ونقص يسيراً كلَّ ليلة بالتدرُّج حتى يُعيد فطوره إلى ربع رطل في العَشر الأخير.

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء:

قَلَّةُ الطعام، وقَلَّةُ المنام، وقَلَّةُ الكلام، والاعتزال عن الناس.

وقد جُعِلَ للجوع وقتان: أحدهما: آخر الأربع والعشرين ساعة، فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقيةٌ بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة، أو يقسِّمها أكلتين كما ذكرنا. والوقت الآخر: على رأس اثنتين وسبعين ساعة؛ فيكون الطيُّ ليلتين، والإفطار في الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقتٌ وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغي أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سامة وضجراً وقَلَّة انشراح في الذكر والمعاملة، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد.

فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلةً، ثم رُدَّت إلى الإفطار كل ليلة تقنَّع، وإن سومت بالإفطار كل ليلة لا تقنَّع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات، وقس على هذا، فهي إن أطمعت طمعت، وإن أقنعت قنعت، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يَرُدَّ النفس إلى أقل قوتها.

ومن الصالحين من كان يُعَيِّر القوت بنوى التمر وَيُنْقِص كلَّ ليلة نواةً، ومنهم من كان يُعَيِّر بعودٍ وَيُنْقِص كلَّ ليلة بقدر نشاف العود، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف حتى يغنى الرغيف في شهر، ومنهم من كان يؤخِّر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت، ولكن يعمل في تأخيره بالتدرج حتى تندرج ليلة في ليلة، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيُّهم إلى سبعة أيام، وعشرة أيام، وخمسة عشر يوماً، إلى الأربعين.

وقد قيل لسهل بن عبد الله: هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه؟ قال: يطفئه النور.

وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاماً بعبارة دلَّت على أنه يجد فرحاً بربه وينطفئ معه لهيب الجوع.

وهذا في الخلق واقع؛ إذ أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعاً فيذهب عنه الجوع، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك.

ومن فعل ذلك ودرج نفسه فى شىء من هذه الأقسام التى ذكرناها لا يؤثّر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص، وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى.

وقد قيل: حدّ الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل، ومتى عيّبت<sup>(١)</sup> النفسُ الخبزَ فليست بجائعة. وهذا المعنى قد يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة أيام، وهذا جوع الصديقين، وطلب الغذاء عند ذلك ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية.

ويكون هذا حدّ الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدرّج، فأما من درج نفسه فى ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين - كما ذكرنا -.

وقد قال بعضهم: حدّ الجوع أن يبيزق؛ فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدلّ هذا على خلوّ المعدة من الدُسومة، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثورى، وإبراهيم بن أدهم، رضى الله تعالى عنهما - كانا يطويان ثلاثاً ثلاثاً. وكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يطوى ستاً، وكان عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنه يطوى سبعة أيام. واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله - المعروف بعموية رحمة الله، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى - أنه كان يطوى أربعين يوماً، وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى من الطى: رجل أدركنا زمانه وما رأيتُه كان فى «أبهر» يقال له «الزاهد خليفة» كان يأكل فى كل شهر لوزة، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمة أحدٌ بالطى والتدرّج إلى هذا الحد. وكان فى أول أمره - على ما حكى - ينقصُ الوقتَ بنشافِ العود، ثم طوى، حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين.

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمعٌ من الصادقين، وقد يسلك غيرُ الصادق هذا لوجود هوى مستكن فى باطنه يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء لنظر الخلق. وهذا عين النفاق، نعوذُ بالله من ذلك.

والصادق ربّما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحدٌ، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى، فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى، فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك، وهذا علامة الصادق؛ فمهما أحسّ فى نفسه أنه يُحبُّ أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه؛ فإن فيه شائبة نفاق.

(١) وفى نسخة: عيّنت.

ومن يطو لله يعوض الله تعالى فرحاً في باطنه ينسيه الطعام، وقد لا ينسى الطعام ولطن لامتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحاني فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحاني، وينفر<sup>(١)</sup> بذلك عن أرض الشهوة النفسانية وما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عن كمال طمأنينتها، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير بأقل من جاذب المغناطيس للحديد، إذا المغناطيس يجذب الحديد لروح في الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة؛ فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في النفس روح استمدها القلب من الروح وأدأها إلى النفس، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها فتزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ «أبيتُ عند ربِّي يُطعمني ويسقيني»<sup>(٢)</sup> ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام أيضاً ضرورة، ولو تكلم - مثلاً - بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع التهاب الحلفاء<sup>(٣)</sup> بالنار؛ لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعت إلى هواها، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس، ورزق العلم سهل عليه الطي وتداركته المعونة من الله تعالى، لا سيما إن كوشف بشئ من المنح الإلهية.

وقد حكى لي فقير أنه اشتد به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبب، قال: فلما انتهى جوعي إلى الغاية بعد أيام فتح الله عليّ بتفاحة، فتناولت التفاحة، وقصدت أكلها، فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرتُ إليها عقيب كسرها، فحدث عندي من الفرح بذلك ما استغنيت به عن الطعام أياماً، وذكر لي أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة. والإيمان بالقدرة ركنٌ من أركان الإيمان، فسلمٌ ولا تُنكر.

قال سهل بن عبد الله، رحمه الله تعالى: من طوى أربعين يوماً ظهرت له القدرة على الملوك.

وقال الشيخ ابو طالب المكي، رحمه الله تعالى، عرفنا من طوى أربعين يوماً برياضة النفس في تأخير الوقت وكان يؤخّر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل، حتى يطو ليلة في نصف شهر، فيطوى الأربعين في سنة وأربعة أشهر، فتندرج الأيام والليالي حتى

(١) وفي نسخة: ويقفو . أى بعد . يقال قفا عنه أى تباعد . ومعنى ينفر هنا يبعد .

(٢) البخارى وغيره من حديث الوصال فى الصوم .

(٣) وفي نسخة : لا مثوية فيه .

يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد، وذكر لي أن الذي فعل ذلك ظهرت له آيات «من الملكوت وكُشِفَ بمعاني قُدرة من الجبروت تجلَّى الله بها له كيف شاء».

وأعلم أن هذا المعنى من الطيِّ والتقلُّ لو أنه عَيَّنُ الفضيلة ما فات أحدًا من الأنبياء، وكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى في ذلك؛ فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوماً، وقد يكون من لا يكشف بشئ من معاني القدرة أفضل ممن يكشف بها إذا كشفه الله بصرف المعرفة؛ فالقدرة أثر من القادر.

ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر<sup>(١)</sup> شيئاً من القدرة، ويرى القدرة تتجلَّى له من سِجْفٍ<sup>(٢)</sup> أجزاء عالم الحكمة؛ فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوماً واجتهد في ضبط أحواله بشئ من الأنواع التي ذكرنا، من: العمل والذكر والقوت وغير ذلك، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين.

وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا العقدة، وعشر ذى الحجة، وهي أربعون موسى عليه السلام.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب، إجازةً، قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون، إجازةً، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري، إجازةً، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال: حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، قال حدثنا عبد الله بن المبارك، قال: حدثنا أبو معاوية الضرير قال: حدثنا الحجاج، عن مكحول قال؛ قال رسول الله ﷺ: «أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»<sup>(٣)</sup>.

(١) وفي نسخة: ولا يستكثر.

(٢) سِجْف: سِجْف: سِجْف.

(٣) ابن نعيم في الحلبه عن أبي أيوب بسند ضعيف.